مركز الدِّراسات القبطيَّة بالقاهرة التَّابع لمكتبة الإسكندريَّة
المعادي، البرج الإداري لفندق سوفيتال
الأحد ٢٨ ديسمبر ٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

أنواع الخطايا وقضيَّة المغفرة عبر تاريخ الكنيسة

مقدِّمة حول: عقيدة غفران الخطايا في الإيمان المسيحي ١
- نصوص كتابيَّة تختص بالخطايا وغفرانها، استغرقت من آباء الكنيسة جدلاً طويلاً بشأنها ٢
- الخلاف الفكري الذي نشأ في الكنيسة حول أنواع الخطايا ٣
- المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها مفهوم غفران الخطايا ٥

مراحل انحسار غفران الخطايا في الاعتراف السِّري على الكاهن ٧
حيدان سرّ الاعتراف على الكاهن عن غايته الأساسيَّة ١٠

مقدِّمة حول: عقيدة غفران الخطايا في الإيمان المسيحي

بحسب الإيمان المسيحي، فإنَّ عقيدة غفران الخطايا تندرج تحت ثلاثة بنود أساسيَّة:

البند الأوَّل: أنه لا يغفر الخطايا إلاَّ الله وحدَه.

لَمَّا شفى الرَّب المفلوج، قال له: «يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك. وكان قوم من الكَتَبة هناك جالسين يفكِّرون في قلوبهم: لماذا يتكلَّم هذا هكذا بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر خطايا إلاَّ الله وحدَه. فللوقت شعر يسوع بروحه، أنهم يفكرون هكذا في أنفسهم. فقال لهم: لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم؟ أيُّما أيسر أن يُقال للمفلوج: مغفورة لك خطاياك، أم أن يُقال: قُم واحمل سريرك وامش؟ ولكن لكي تعلموا أنَّ لابن الإنسان سُلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا، قال للمفلوج: لك أقول قُم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك. فقام للوقت وحمل السَّرير وخرج قُدَّام الكُل، حتى بُهت الجميع، ومجَّدوا الله قائلين: ما رأينا مثل هذا قط» (مرقس ٢:٥-١٢)

ويقول المزمور: «إن كنتَ تراقب الآثامَ ياربُّ، ياربُّ من يثبُت، **لأنَّ من عندك المغفرة**» (مزمور ١٣٠:٤).

ويقول القدِّيس بطرس الرَّسول عن المسيح له المجد: «هذا رفَّعه الله بيمينه، رئيساً ومخلِّصاً، **ليعطي ... التَّوبة وغفران الخطايا**» (أعمال ٥:٣١).

البند الثَّاني: أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة.

خُلق الإنسان من العدم بنُطق إلهي، على صورة الله ومثاله. ولَمَّا خالف الوصيَّة سقط وطُرد من حضرة الله. ولم يكن يكفي نُطقٌ إلهي آخر ليغفر للإنسان سقوطه، لأنَّ الخطيئة التي سقط فيها الإنسان الأوَّل بسبب المخالفة، قد أفضت به إلى الموت «يوم تأكل منها، موتاً تموت» (تكوين ٢:١٧). وهكذا «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموتُ إلى جميع النَّاس إذ أخطأ الجميع» (رومية ٥:١٢). فلصق الموتُ والفسادُ بجسد الإنسان، وكان مطلوباً أن تمتزج به الحياة لتُبيد الموت الذي لصق به.

ومن أجل ذلك، أخذ ابن الله جسداً من العذراء، التي هي منَّا، وفي شخص المسيح له المجد، اتحد اللاَّهوت بالنَّاسوت بسرٍّ لا يُعبَّر عنه. فلبس المُخلِّص جسداً من أجسادنا، حتى إذا ما اتحد هذا الجسد بالحياة، لا يبقى في الموت بعد، بل يلبس عدم الموت.

وفي ذلك يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[لو كان حلوله في جسد، أمراً سخيفاً وغير معقول، لكان أمراً سخيفاً أيضاً أن يتَّحد بكلِّ الكون ويعطي ضياءً وحركةً لكلِّ الأشياء بعنايته، لأنَّ الكَون أيضاً جسد.

أمَّا إن كان قد لاق به أن يتَّحد بالكَون، وأن يُعرف في الكُل، وجب أن يليق به أيضاً أن يظهر في جسد بشري، وأن يستضيء به ذلك الجسد ويعمل، لأنَّ البشريَّة جزءٌ من الكُل كسائر الأجزاء. ولو كان أمراً غير لائق أن يتخذ جزءاً كأداة يُعلِّم البشر بها عن لاهوته، لكان أمراً في غاية السَّخَف أن يُعرف بواسطة كل الكون أيضاً.

أمَّا إن كانوا يتوهَّمون أنَّ ظهور المُخلِّص في الإنسان – الأمر الذي نتحدَّث عنه – غير لائق، لأنَّ الجنس البشري مخلوق، ومخلوق من العدم، فإنه يجب عليهم أن يُخرجوه من الخليقة أيضاً، لأنها هي أيضاً وُجدت من العدم "بالكلمة"] (تجسُّد الكلمة ٦:٤١، ٧ ؛ ٢:٤٢).

وهكذا ومن أجل محبَّته لنا، وبإرادته وحدَه، قَبِل ابنُ الله موتَ الصَّليب بالجسد، لأنَّ اللاَّهوت لا يموت. «الله بين محبَّته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا» (رومية ٥:٨). ويقول يوحنَّا الرَّسول: «دمُ يسوع المسيح يُطهِّرنا من كلِّ خطيئة» (١يوحنا ١:٧). وبموت المسيح أبيد الموت، إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه، لأنه هو الحياة. فإن كان بخطيئة واحد مات الكثيرون، «فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النِّعمة وعطيَّة البر، سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رومية ٥:١٧). لأنه إن كانت أجرة الخطيئة موت، فإنَّ هبة الله هي حياة أبديَّة بالمسيح يسوع ربِّنا (انظر: رومية ٦:٢٣).

ونقول في إحدى صلوات الكنيسة: ''**وطُعن في جنبه بالحربة، وجرى منه دمٌ وماءٌ غفراناً لكلِّ العالم. وتخضَّب بهما جسدَه** ... وعوض الخطيئة المحيطة بالعالم مات الابنُ بالصَّليب، وردَّنا من التَّدبير الشَّمالي إلى اليميني، وأمَّن بدم صليبه، ووحَّد وألَّف السَّمائيِّين مع الأرضيِّين، والشَّعب مع الشُّعوب، والنَّفْس مع الجسد''.

البند الثَّالث: أنَّ الحصول على غفران المسيح، لا يمكن الوصول إليه، أو الحصول عليه إلاَّ من داخل الكنيسة.

في سرّ المعموديَّة المقدَّسة، نولد أبناء جُدُد لله، أي هؤلاء «الذين ولدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رَجُل، بل من الله» (يوحنَّا ١:١٣). وهو السِّر الذي به نشترك في شبه موت المسيح، لننال حياته. «من آمن واعتمد خَلُص، ومن لم يؤمن يُدن» (مرقس ١٦:١٦). «وكان كثيرون من الذين آمنوا، يأتون مقرِّين ومخبرين بأفعالهم» (أعمال ١٩:١٨). فالكنيسة هي الطَّريق الوحيد للوصول إلى المسيح.

ويقول يوحنَّا الرَّسول: «نعلم أنَّ كلَّ من وُلد من الله لا يخطئ، بل المولود من الله يحفظ نفسَه، والشِّرير لا يمسُّه» (١يوحنا ٥:١٨). ولكن ماذا لو سقط الإنسان المُعمَّد في الخطيئة، هل تُغفر خطاياه؟ فكانت قضيَّة المغفرة بعد المعموديَّة، من القضايا التي شغلت فكر الكنيسة ردحاً من الزَّمان. كما أنَّ تقسيم الخطايا إلى خطايا مميتة لا يمكن غفرانها، وأُخرى غير مميتة، يمكن أن تُغفر، قد شغل فكر الكنيسة حتى إلى ما بعد القرن الثَّالث الميلادي.

ومن أجل ذلك، ولتكميل هذا الموضوع، سوف أشارككم في ثلاثة بنود، هي:

- نصوص كتابيَّة تختص بالخطايا وغفرانها، استغرقت من آباء الكنيسة جدلاً طويلاً بشأنها.
- الخلاف الفكري الذي نشأ في الكنيسة حول أنواع الخطايا.
- المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها مفهوم غفران الخطايا.

أوَّلاً: نصوص كتابيَّة تختص بالخطايا وغفرانها، استغرقت من آباء الكنيسة جدلاً طويلاً بشأنها

النَّصُّ الأوَّل: «لأنَّ الذين استُنيروا مرَّة، وذاقوا الموهبة السَّمائيَّة، وصاروا شركاءَ الرُّوح القُدُس، وذاقوا كلمةَ الله الصَّالحة، وقوَّاتِ الدَّهر الآتي، وسقطوا، **لا يمكن تجديدُهم أيضاً للتَّوبة**، إذ هم يصلبون لأنفسهم ابنَ الله ثانية ويشهِّرونَه. لأنَّ أرضاً قد شربت المطرَ الآتي عليها مراراً كثيرة، وأنتجت عُشباً صالحاً للذين فُلِّحت من أجلهم، تنال بركةً من الله. ولكن إن أخرجت شوكاً

وحسكاً، فهي مرفوضةٌ، وقريبةٌ من اللَّعنة، التي نهايتُها للحريق» (عبرانيِّين ٦:٤-٨).

النَّصُّ الثَّاني: «فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعدما أخذنا معرفة الحق، **لا تبقى بعدُ ذبيحةٌ عن الخطايا**، بل قبولُ دينونةٍ مخيفٌ، وغَيرةُ نارٍ، عتيدةٍ أن تأكل المضادين» (عبرانيِّين ١٠:٢٦-٢٨).

النَّصُّ الثَّالث: «لئلا يكون أحدٌ زانياً أو مستبيحاً كعيسو، الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريَّته. فإنكم تعلمون أنه أيضاً بعد ذلك لَمَّا أراد أن يرث البَرَكَة، رُفض، **إذ لم يجد للتَّوبة مكاناً**، مع أنه طلبها بدموع» (عبرانيِّين ١٢:١٦، ١٧).

النَّص الرَّابع: «إنْ رأى أحد أخاه يخطئ خطيئة ليست للموت، يَطلب فيعطيه حياة، للذين يخطئون ليس للموت. **توجد خطيئة للموت**، ليس لأجل هذه أقول أن يُطلب. كلُّ إثم هو خطيئة. **وتوجد خطيئة ليست للموت**» (١يوحنا ٥:١٦، ١٧).

ثانياً: الخلاف الفكري الذي نشأ في الكنيسة حول أنواع الخطايا

يتكلَّم القدِّيس يوحنَّا الحبيب في رسالته الأولى، عن خطيئة موجبة للموت، وأُخرى غير موجبة له[١]. ولقد ظهر في الكنيسة في منتصف القرن الثَّاني الميلادي، كتاب، اسمه ''الرَّاعي'' لهرماس *The Shepherd of Hermas* [٢]. وهذا الكتاب قسَّم الخطايا إلى خطايا كبيرة لا يمكن غفرانها إلاَّ مرَّة واحدة، وأُخرى صغيرة، يمكن أن تقدَّم عنها توبة متكرِّرة. فالكبيرة عنده تتضمَّن 'الزِّنا والقتل والارتداد والفسق وإدمان الخمر والسَّرقة والغش وشهادة الزُّور والتَّجديف والرِّياء'[٣]. إلاَّ أنه يقول صراحة: ''إننا إذا تمنَّعنا عن فعل الخير، فإننا نرتكب خطيئة كُبرى''. ثمَّ يورد قائمة بالشُّرور التي يجب أن نعف عنها. ويضع خطايا 'الاغتياب والحقد والشَّتيمة والطَّمع والمجد الباطل والتَّعالي والكبرياء والكذب'، جنباً إلى جنب مع خطايا 'الزِّنا والفجور والعربدة ... الخ'[٤]. بل إنَّ النيَّة الشِّريرة قد حُسبت في كتاب ''الرَّاعي'' لهرماس خطيئة كبيرة[٥]. ممَّا يجعلنا لا نستطيع القطع بأنواع الخطايا التي كان لا يُسمح بأن يُقدَّم عنها توبة إلاَّ مرَّة واحدة، والخطايا الأُخرى التي كان يمكن أن تُقدَّم عنها توبة متكرِّرة.

ومن الذين قالوا بأنَّ خطايا 'الارتداد والقتل والزِّنا' هي من الخطايا التي لا يمكن غفرانها، العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، و هيبوليتس (١٧٠-٢٣٥م) الرُّوماني الذي عاصر العلاَّمة أوريجانوس. وفي المقابل، كان هناك رأي آخر يعارض ذلك، ومن بين هؤلاء العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، والبابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م). وإنَّ ما اعتبره العلاَّمة ترتليان خطايا غير قابلة للغفران، اعتبره العلاَّمة أوريجانوس خطايا يمكن أن تُغفر. وهذا الجدل بين هؤلاء وأولئك استغرق من الكنيسة جهداً وزمناً طويلَين.

أمَّا العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أي في النِّصف الأوَّل من القرن الثَّالث الميلادي، فقد ميَّز بين الخطايا الرَّئيسيَّة الثَّلاث؛ 'عبادة الأوثان، الزِّنا، والنَّجاسة'، وهي الخطايا التي لا يمكن غفرانها إلاَّ مرَّة واحدة في الحياة، وبين الخطايا العرضيَّة

١- انظر: ١يوحنا ٥:١٦

٢- ''هرماس'' هو أحد رُعاة كنيسة روما، وقد ألَّف كتابه المعروف باسم ''الرَّاعي''، فيما بين سنة ١٤٠م وسنة ١٥٠م، في الوَقت الذي كان فيه شقيقه البابا بيوس الأوَّل يدير شؤون كنيسة روما. وقد لاقى كتاب ''الرَّاعي'' لهرماس رواجاً كبيراً، بل ومنقطع النَّظير، في الكنيسة الأولى. إذ أنَّ إيريناؤس وترتليانوس وكليمندس الإسكندري وأوريجانوس، كانوا يضعونه في مستوى الكُتُب المقدَّسة. وقد ذكر يوسابيوس القيصري أنَّ كتاب ''الرَّاعي''، يُتلى في بعض الكنائس، ويُستخدم في تعليم الموعوظين، أو طالبي العماد.

وبرغم أنَّ هذا الكتاب من جهة ''تعاليمه''، لا يلقى اليَوم نفس الاهتمام القديم، إلاَّ أنه ذات أهميَّة كبيرة لدراسة موضوع التَّوبة وغفران الخطايا في الكنيسة في عصورها المبكِّرة. لأنَّ ما أورده الكتاب عن سرِّ التَّوبة، قد أثَّر على ممارسات الكنيسة الشَّرقيَّة لهذا السِّر، وعلى امتداد بضع مئات تالية من السِّنين، إذ قد انتشرت تعاليمه في الشَّرق انتشاراً واسعاً، في حين أنه قد نُسي تماماً في الغرب مع حلول القرن الرَّابع الميلادي، كما يشهد بذلك القدِّيس إيرونيموس (*De Vir*., il.10.).

3- Patachovsky, V. & C. Vogel, *Sin in the Orthodox Church and in the Protestant Church*, Originally published in french as part of théologie du péché, Desclée, Tournai, 1960., p. 22, 23.

٤- الوصيَّة الثامنة ٣-٥

٥- الرؤيا الأولى ١:٨

التي يمكن أن تُمحى بسهولة بواسطة الصَّلاة والصَّوم[٦]. وكان أوريجانوس يجيز للخاطئ أن يُقر بخطاياه أمام الأُسقُف على مرأى من الجماعة، بشرط أن يمضي وقتاً في الصَّوم والصَّلاة والتقشُّف، يحدِّده الأُسقُف بنفسه.

وهكذا نتج خلاف فكري بين الاتجاه المتشدِّد في وجود خطايا لا يمكن غفرانها، وهو الاتجاه الذي تزعَّمه نوفتيان الهرطوقي مع أتباعه[٧]، وهم جماعة الإنكراتيِّين Encratite أي ''الأنقياء''، والاتجاه الآخر الذي يرفض وجود خطايا لا يمكن غفرانها.

فالذين تبنوا الاتجاه المتشدِّد، اعتمدوا على قول القدِّيس يوحنا الحبيب، السَّابق ذكره. فيقول نوفتيان الهرطوقي وأتباعه: ''إنَّ الرَّسول يوحنا يتحدَّث هنا عن الخطايا التي لا تُغفر''، وذلك لكي يبرِّروا رأيهم بأنَّ الخطايا التي تُقترف بعد المعموديَّة، لا تُغفر.

ويقول نوفتيان الهرطوقي أيضاً: ''إنَّ أفضل الطُّرق وأنجح الوسائل للتَّطهير من أوساخ الخطيئة هي المعموديَّة. وحيث أنه ليس هناك أكثر من معموديَّة واحدة، لذلك لم يبق هنالك وسيلة أُخرى للتَّطهير بعد المعموديَّة''.

وقد ردَّ عليه آباء الكنيسة؛ فعلى سبيل المثال يقول القدِّيس غريغوريوس اللاَّهوتي (٣٢٩-٣٨٩م) في دحض هذا الرأي:

[إذا كان الأمر كذلك، إذاً لرُفضت توبة داود، ونُزعت عنه نعمة النُّبوَّة، ورُفضت أيضاً توبة بطرس، ولَما عاد إلى رُتبته الأولى][٨].

ويرى الأُسقُف الأنطاكي ابن العبري (١٢٢٥-١٢٨٦م) ''أنَّ خطيئة الموت هي التي يموت بسببها الإنسان بدون أن يتوب. أمَّا غفران الخطايا الذي نحن بصدده، فيجب أن يكون مقروناً بالتَّوبة التي تُعتبر شرطاً أساسياً له''[٩].

وعلى الرَّغم من أنَّ الرأي المعتدل الذي رفض القول بوجود خطايا لا يمكن غفرانها هو الذي ساد أخيراً، إلاَّ أنَّ الجدل الذي ثار بسبب هذا الموضوع، قد ترك آثاره واضحة على الأحكام المتشدِّدة والصَّعبة في قبول توبة الرَّاجعين إلى الإيمان، والذين كانوا قد ارتدُّوا تحت ضغط التَّعذيب، كما نقرأ ذلك على سبيل المثال في قوانين مجمع قرطاجنَّة سنة ٢١٢م.

ومع مرور القرون المتتابعة، ومع حلول القرون الوُسطى، بدأ الحديث عن أنواع الخطايا، وتقسيمها إلى خطايا كبيرة وأُخرى صغيرة، يتوارى في الشَّرق المسيحي حتى توقَّف تماماً، إذ لم يكن منبت هذا التَّقسيم نابعاً من الشَّرق أصلاً، ولكنَّه ظلَّ حتى اليَوم في الكنيسة الغربيَّة الكاثوليكيَّة، التي لا زالت تُقسِّم الخطايا إلى خطايا مميتة أو ثقيلة، وخطايا عرضيَّة[١٠]. ولكن تعود الكنيسة الكاثوليكيَّة فتقول: 'ما من خطيئة، مهما كانت ثقيلة، إلاَّ وتستطيع الكنيسة مسامحتها'[١١].

وإن عُدنا إلى الكتاب المقدَّس، نجد أنَّ القدِّيس يعقوب الرَّسول يتحدَّث في رسالته عن خطيئة المحاباة، معتبراً أنَّ أيَّة خطيئة، هي تعدِّي النَّاموس، فيقول: «ولكن إن كنتم تحابون، تفعلون خطيئة، موبَّخين من النَّاموس كمتعدِّين. **لأنَّ من حفظ كلَّ النَّاموس، وإنما عَثَرَ في واحدة، فقد صار مجرماً في الكُل**» (يعقوب ٢:٩، ١٠).

والقدِّيس بولس الرَّسول نفسه لم يكن عنده تقسيم للخطايا، بعضها كبير وبعضها الآخر صغير. فخطيئة الشَّتيمة مثلاً،

6- Cayre A.A., *Précis de patrologie*, t. 1, *Descleé et cie*, 1927, p. 206.

٧- نوفتيان أو نوفاتوس هو قس من كنيسة روما كان يطمح إلى الكرسي الرُّوماني بعد استشهاد الأُسقُف فابيانوس. ولَّما لم يفلح، استعان ببعض الأساقفة، فرسموه أُسقُفاً دخيلاً على روما. ودُعي أتباعه باسم الإنكراتيِّين - من الكَلمة اليونانيَّة ἐγκρατεύομαι (إنكراتيفومى) أي ''الذي يضبط نفسه''، وهم جماعة ''الأنقياء''، لادِّعائهم الطُّهر والنَّقاء. فكانوا يمتنعون عن أكل اللَّحم، وشُرب الخمر، والزَّواج. وكتاب أعمال توما - وهو ذو نظرة إنكراتيَّة هرطوقيَّة - يورد مجموعة من الخطايا غير معروفة في النُّصوص الأرثوذكسيَّة، مثل أعمال الخزي والعار والتَّعبُّد للبطن.

وتتطرَّفوا في قبول المرتدِّين، وارتأوا عدم قبولهم في شركة المؤمنين. وقالوا بأنَّ كلَّ خطيئة تُفعل بعد المعموديَّة، لا تُغفر ... الخ.

8- Cayre A.A., *op. cit.*, p. 111

٩- المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرَّبان اسحق ساكا، مرجع سابق، ص ١١٣

١٠- التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، مرجع سابق، ص ٥٤٦-٥٤٨

١١- نفس المرجع، ص ٣٠٤

تتساوى عنده مع خطيئة الزِّنا، كما أنَّ الطَّمع يوازي عبادة الأوثان[١٢].

و لم يكن الرَّسول بولس هو أوَّل من قال بذلك؛ لأنَّ خطيئة الشَّتيمة التي تظهر للكثيرين أنها خطيئة صغيرة، كان عقابُهـا في العهد القديم، الموت، إن وُجِّهت إلى الوالدين: «من شتم أباه أو أُمَّه يُقتل» (خروج ٢١:٧). ويعود السيِّد المسيح في العهـد الجديـد ليذكِّر بنفس الوصيَّة قائلاً: «إنَّ الله أوصى قائلاً: أكرم أباك وأُمَّك. ومن يشتم أباً أو أُماً، فليمُت موتاً» (متى ١٥:٤، ٥).

بل إنَّ خطيئة الخوف، أي عدم الإيمان والثِّقة في الرَّب – وهي من أخطر الخطايا التي يتعرَّض لها أولاد الله في حـروبهم الرُّوحيَّة – قد أُدرجت ضمن خطايا القتل والزِّنا «وأمَّا **الخائفون** وغير المؤمنين، والرَّجسون والقاتلون، والزُّنـاة والسَّـحَرة وعبدة الأوثان، وجميع الكذبة، فنصيبهم في البحيرة المتَّقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثَّاني» (رؤيا ٢١:٨).

وفي الحقيقة، فإنَّ قصَّة خاطئ مدينة كورنثوس، تدلُّ على أنه حتى الخطايا المميتة والخطيرة، يمكن أن تُغفـر. والسـيِّد المسيح غَفَر خطيئة بطرس الذي أنكر معلِّمه. ولا ننسى أنَّ القدِّيس بطرس الرَّسول دعا اليهود إلى التَّوبة، وهُم أنفسهم الذين صلبوا الرَّب يسوع المسيح[١٣].

وبالإيجاز، فإنَّ كلَّ الخطايا تُغفر للنَّاس، لأنَّ دمَ يسوع المسيح على الصَّليب، يُطهِّرنا من **كلِّ خطيئة**[١٤].

ثالثاً: المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها مفهوم غفران الخطايا

يتَّضح من النُّصوص السَّابق ذكرها والواردة في الرِّسالة إلى العبرانيِّين، وأيضاً النَّص الوارد الرِّسالة الأولى ليوحنا الرَّسول، أنها تتحدَّث عن **الخطايا التي ليست لها مغفرة أو توبة**. فقد كان السُّقوط في الخطيئة بعد المعموديَّة في العصور الأولى للمسيحيَّة أمراً مُريباً إلى حد عدم السَّماح به. فقد كانت الكنيسة تنتظر من أعضائها التزاماً إيمانياً عميقاً، وانضباطاً دقيقاً كقول القدِّيس يوحنا الرَّسول: «نعلم أنَّ كلَّ من وُلد من الله لا يخطئ، بل المولود من الله يحفظ نفسه، والشِّرير لا يمسُّه» (يوحنا ٥:١٨).

ويرى هرماس في كتابه "الرَّاعي"، أنَّ التَّوبة لا تكون إلاَّ في المعموديَّة، لأننا في المعموديَّة ننال مغفرة خطايانا السَّـابقة. وفي الحقيقة فإنَّ من يطالع هذا الكتاب جيداً، يجد أنَّ نظرته للمعموديَّة هي نظرة لا تتعدَّى كثيراً غفران الخطايا. وهي نظرة غير شـاملة لمفهوم المعموديَّة، كولادة جديدة من الله، وفي الله. ثمَّ يسمح الكتاب بصورة استثنائيَّة، لتوبة واحدة فقط بعد المعموديَّة[١٥].

ويرى هرماس أيضاً أنَّ التَّائب لا تُغفر خطاياه في الحال، ولكن يلزمه أن يمارس أعمال إماتات كـثيرة، فيقـول: "... أتعتقد أنَّ خطايا التَّائبين تُغفر فوراً؟ على التَّائب أن يفرض الألم على نفسه، وأن يكون متواضعاً في أعماله، وأن يتألَّم آلامـاً متعدِّدة، فإذا تحمَّل بصبر، العذاب الذي يُصيبه، فخالقُ الكون يرأف به، ويشفيه من كلِّ شروره. لأنه يعـرف مكنونـات القلوب، وينظر إليه ويتفحَّص نقاوته. فمِن صالحك أن تتعذَّب أنت وأهلُ بيتك ... عليك أن تشكر الله، لأنه بآلامك هـذه، نبَّهك وعلَّمك"[١٦].

ويتَّفق العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) مع هرماس على أنه ليست هناك سوى توبة واحـدة بعـد المعموديَّة، فيقول:

[إنَّ الله برحمته العظيمة قد أغدق على الذين حصلوا على الإيمان ووقعوا في الخطيئة، بتوبة ثانية][١٧].

ويبدو أنَّ هرماس في سماحه بتوبة واحدة بعد المعموديَّة، كان يعني التَّوبة عن الخطايا الكبيرة فقط، لأنه في مواضع أُخرى

١٢- ١كورنثوس ٥:١١ ؛ ١كورنثوس ٦:١٠
١٣- أعمال ٢:٣٧
١٤- ١يوحنا ١:٧
١٥- الوصيَّة ٤:٣
١٦- المثل السابع، ٤، ٥
17- Quasten J., *Initiation aux Pères de l'Eglise*, t. 1, Trad. par J. Laporte, Cerf, Paris, 1955, p. 45.

من الكتاب، يشير إلى إمكانيَّة تكرار التَّوبة غير مرَّة. فيقول في ذلك: ''أولئك الذين تردَّدوا في توبتهم، وسبَّبوا شقاقات، فالتَّوبة تبقى قائمة بالنِّسبة لهم، لأنهم كانوا دائماً صالحين''[١٨].

ويقول: ''كلُّ من يتوب قلبياً، وينقِّي ذاته من الخطايا التي سبق وأشرتُ إليها، ويبتعد عن فعل الخطيئة، ينال الشِّفاء من الرَّب، ويحيا في الله إذا طبَّق وصاياه بدون تردُّد. أمَّا الذين يضاعفون خطاياهم ويستمرون في شهواتهم، فسيُحكم عليهم بالموت''[١٩].

وما يهمّنا الإشارة إليه هنا، هو أنَّ سرَّ التَّوبة في زمن العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، أي في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّاني وأوائل الثَّالث، كان كثير الاستخدام، وأصبح نظاماً كنسياً. فيشرح العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) كيف ينال الخاطئ الحِل من الكنيسة بعد اعترافه بخطاياه، جالساً على الرَّماد، ولابساً المسوح، ويكون طعامه الخُبز والماء فقط.

ويُعدِّد العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) طرائق مغفرة الخطايا فيقول:

[الأولى، تلك التي بواسطتها تعمَّدنا ''لمغفرة الخطايا'' (مرقس ١:٤). والغفران الثَّاني، هو في تحمُّل الاستشهاد. المغفرة الثَّالثة، تلك التي تعطى لنا من خلال الصَّدَقة. لأنَّ المُخلِّص يقول: «بل أعطوا ما عندكم صدقة، وهوذا كلُّ شيء يكون نقيًّا لكم» (لوقا ١١: ٤١). وهناك مغفرة خطايا رابعة، وهي تُعطى لنا من خلال مغفرتنا نحن أيضاً لخطايا إخوتنا. لذلك يقول الرَّب والمُخلِّص ذاتُه: «فإنه إنْ غفرتم للنَّاس زلاَّتهم، يغفر لكم أيضاً أبوكم السَّماوي. وإن لم تغفروا للنَّاس زلاَّتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاَّتكم» (متى ٦:١٤، ١٥). وهكذا علَّمنا أن نقول في الصَّلاة: «واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» (متى ٦:١٢). خامس مغفرة للخطايا، نحصل عليها عندما يَرُدُّ أحدٌ خاطئاً عن ضلال طريقه. إذ أنَّ الكتاب المقدَّس يقول: «من يرُد خاطئاً عن ضلال طريقه، يُخلِّص نفساً من الموت، ويستُر كثرةً من الخطايا» (يعقوب ٥:٢٠). وهناك أيضاً مغفرة سادسة للخطايا، وهي تتم بواسطة غزارة المحبَّة، إذ يقول الرَّب ذاتُه: «أقول لكَ قد غُفرتْ خطاياها الكثيرة، لأنها أحبَّت كثيراً» (لوقا ٧:٤٧). والرَّسول يقول: «لأنَّ المحبَّة تستُر كثرةً من الخطايا» (١بطرس ٤:٨). وهناك أيضاً وسيلة سابعة لمغفرة للخطايا، تلك التي نحصل عليها من خلال أعمال التَّوبة – مع أنها حقاً صعبةٌ وشاقة – وذلك عندما يغسل الخاطئ سريره بدموعه (مزمور ٦:٧). عندما تصير له دموعُهُ خُبزاً، نهاراً وليلاً (مزمور ٤٢:٤). **عندما لا يخجل بالاعتراف بخطاياه لكاهن الرَّب، ويلتمس الشِّفاء، وفقاً لمن قال: «أعترفُ للرَّب بذنبي وأنت رفعت آثام خطيئتي»** (مزمور ٣٢:٥). **هنا يتحقَّق ما قاله الرَّسول يعقوب: «أمريضٌ أحدٌ بينكم، فليدع شيوخ الكنيسة، فيُصلُّوا عليه، ويدهنوه بزيت باسم الرَّب، وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرَّب يقيمه. وإن كان قد فعل خطيئة تُغفَر له»** (يعقوب ٥:١٤- ١٥)][٢٠].

ويتحدَّث العلاَّمة أوريجانوس في عظته رقم (٨٦) لشرح إنجيل القدِّيس متى، عن وسيلة أُخرى لغفران الخطايا، وهي التَّناول من جسد الرَّب ودمه الكريمين، وفقاً لقول الرَّب لتلاميذه في العشاء الأخير: «وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: **اشربوا** منها كلُّكم، لأنَّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي **يُسفك** من أجل كثيرين **لمغفرة الخطايا**» (متى ٢٦:٢٧، ٢٨). فيقول:

[الدَّم في الكأس، مشروب ومسكوب. مشروب بواسطة التَّلاميذ، ومسكوب لمغفرة خطايا الذين يشربون منه. وإذا أردتَ أن تعرف بأيِّ معنى صار الدَّم مسكوباً، قارن هذا بما يقوله بولس الرَّسول: «إنَّ محبَّة الله قد انسكبت في قلوبنا» (رومية ٥:٥). فإذا انسكب دم العهد الجديد في قلوبنا، تُغفر لنا كلُّ خطايانا التي اقترفناها في الماضي، وتُمحى تماماً][٢١].

ويشرح البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، ما ورد في رسالة العبرانيِّين (٦:٤-٦)، فيقول:

١٨- المثل الثَّامن ١٠:٢

١٩- المثل الثَّامن ١٤:٣

20- Origen, *Fathers of the Church*, Volume 83, Homilies on Leviticus.

21- Origen, *Commentary on Matthew, 86*, Die griechischen christlichen Schriftsteller der ersten drei Jahrhunderte, Leipzig, (GCS) 38. 2:199-200, Cited by, *Ancient Christian Commentary on Scripture, New Testament Ib, Matthew 14-28*, USA, 2002, p. 348 ; Cf. also, Origène, *Homélies sur Jérémie*, Traduction par, Pierre Husson & Pierre Nautin, SC 238, 1977, p.16, 17.

[كلمات الرِّسالة إلى العبرانيِّين (٦ : ٤-٦) لا تمنع توبة الخطاة بل تشير إلى أنَّ **معمودية الكنيسة الجامعة تُعطى مرَّة واحدة ولا يمكن أن تتكرَّر**. ويجب أن نلاحظ أنه للعبرانيِّين بالذَّات كَتَبَ الرَّسول هذه الكلمات، لأنه خاف عليهم من التَّظاهر بالتَّوبة، وأنهم بسبب تمسُّكهم الشَّديد بالنَّاموس الموسوي وشريعة التَّطهير، سيظنّون أنه توجد فرصة لمعموديَّات يوميَّة متكرِّرة كما في (مرقس ٧ : ٣-٤). ولذلك يشجِّعهم على التَّوبة، ويُعلن أنَّ التَّجديد في المعموديَّة، هو تجديدٌ فريدٌ لا يُعاد. وفي رسالة أُخرى يقول «إيمانٌ واحد، معموديَّةٌ واحدة» (أفسس ٤ : ٥). وهو لا يقول إنه من المستحيل أن يتوب السَّاقط، بل من المستحيل أن نصنع نحن تجديداً لأنفسنا بالتَّوبة. والفرق كبير، لأنَّ من يتوب، يكفُّ عن الخطيئة ولكنَّ أثارَ جروحِه تظلُّ ظاهرة. بعكس من يعتمد، فإنه يخلع العتيق ويتجدَّد (كولوسي ٣ : ٩-١٠)، بل ويولد مرة ثانية، بنعمة الرُّوح القُدُس (يوحنا ٣ : ٣)][٢٢].

- **مراحل انحسار غفران الخطايا في الاعتراف السِّري على الكاهن**

إنَّ الاعتراف لله بالخطايا في العهد القديم، وأمام أحد الأنبياء كشاهد، تدعمه شواهد كثيرة[٢٣]. ومن أشهرها اعتراف شاول الملك على يد صموئيل النَّبي، حيث قال له: «أخطأت إذ تعدَّيتُ أمر الرَّب، فاغفر الآن خطيئتي، وارجع معي فأسجد للرَّب» (١صموئيل ١٥:٢٣، ٢٥). واعتراف داود الملك بخطيئته على يد ناثان النَّبي إذ قال له: «قد أخطأتُ إلى الرَّب، فقال ناثان لداود: إنَّ الرَّب أيضاً قد نقل خطيئتك عنك، فلا تموت أنت» (٢صموئيل ١٢:٧-١٣).

وأمَّا في كتاب العهد الجديد، فيرد أربعة شواهد تتحدَّث عن الاعتراف بالخطايا، وهي:

(١) «واعتمدوا منه (أي من يوحنَّا المعمدان) في الأردن معترفين بخطاياهم» (متى ٣:٦).

(٢) «وكان كثيرون من الذين آمنوا، يأتون (إلى الآباء الرُّسُل) مقرِّين ومخبرين بأفعالهم» (أعمال ١٩:١٨).

(٣) «اعترفوا بعضكم لبعض بالزَّلات وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا» (يعقوب ٥:١٦).

(٤) « إن قُلنا إنه ليس لنا خطيئة، نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إنْ اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادلٌ حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهِّرنا من كلِّ إثم» (١يوحنا ١:٨، ٩).

وهذه الأربعة شواهد الكتابيَّة من العهد الجديد، التي تتحدَّث عن الاعتراف بالخطايا، لا تنصُّ صراحة على الاعتراف السِّري على الكاهن، برغم وجود هذا الاعتراف السِّري على الكاهن في الكنيسة منذ البدايات الأولى لها. فيشرح العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أنَّ **الاعتراف بالخطايا** في زمانه، هو على مستويين، المستوى العلني أمام الجماعة، وهو الأقدم في الكنيسة، والمستوى السِّري، أي الاعتراف الشَّفهي على الكاهن، وهي أوَّل إشارة واضحة ترد إلينا من كنيسة الإسكندريَّة، تُثبت وجود الاعتراف السِّري على الكاهن، في هذا الوقت المبكِّر من تاريخها. فيقول:

[إنَّ الاعتراف العلني بالخطايا ἐξομολόγησις **من الوسائل النَّاجعة والمؤثِّرة]**[٢٤].
[لكي تُصبح توبة الخاطئ كاملة، يتحتَّم الاعتراف على كاهن الله][٢٥].

ويخاطب المعترِف قائلاً له:

[دقِّق باهتمام عند من تعترف بخطاياك. عليك أولاً أن **تضع الطَّبيب تحت الاختبار**، حتى تعرف إن كان قادراً أن يكون ضعيفاً مع الضُّعفاء، وباكياً مع الباكين. وانظر إن كان يعتقد أن وجعك (خطيئتك) هي من **النَّوع الذي ينبغي أن يُعرف ويُشفى في حضرة الجماعة المجتمعة**، فاتبع المشورة إن كان الطَّبيبُ متمرِّساً ومختبراً][٢٦].

وفي قول له مهمٌ للغاية، يتحدَّث عن الكهنة الذين يتقبَّلون سرَّ الاعتراف، فيقول عنهم:

٢٢- رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ١٣:٤
٢٣- لاويين ٥:١-٦ ؛ لاويين ٢٦:٣٩-٤٥ ؛ عدد ٥:٦، ٧ ؛ تثنية ٢٦:٣ ؛ يشوع ٧:١٩ ... الخ.
٢٤- عظة ١ على مزمور ٣٦، فصل ٥
٢٥- عظة على سفر اللاويِّين (٢:٤).
٢٦- عظة ٣٧ على سفر المزامير.

[يوجد كهنة هم بالحق، كهنة للكاهن الأعظم. هؤلاء **تقبَّلوا معرفة الشِّفاء الذي ينحدر من الله. وتعلَّموا من الرُّوح القُدُس عمَّا يختص بالخطايا التي ينبغي أن يرفعوا عنها ذبيحة، ومتى يكون ذلك، وبأيِّ كيفيَّة. كما تعلَّموا أيُّ الخطايا التي لا ينبغي أن يصنعوا لها هكذا**][٢٧].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) في ذلك:

[كما أنَّ المعمَّد يستنير بنعمة الرُّوح القُدُس، هكذا بواسطة الكاهن، ينال التَّائب الغُفران بنعمة المسيح] (ضد النُّواتيِّين).

وهكذا نجد أنه برغم وجود الاعتراف السِّري على الكاهن في الكنيسة منذ بواكيرها الأولى، إلاَّ أنه لم يطوِّع واحدٌ من آباء الكنيسة – على كثرتهم – واحدةً من الآيات الكتابيَّة السَّابق ذكرها، لكي يجعل منها شاهداً كتابياً من العهد الجديد، لإثبات الاعتراف السِّري على الكاهن. كما أنَّ قوانين الرُّسل، وقوانين المجامع المسكونيَّة والمكانيَّة التي تعترف بها الكنيسة القبطيَّة، لم تُشر هي الأُخرى إلى الاعتراف السِّري على الكاهن. وذلك لسببين، أولهما أنَّ الاعتراف بالخطايا في الكنيسة الجامعة، والذي كان شائعاً فيها في بواكيرها الأولى كان اعترافاً علنياً وليس سرياً. وثانيهما، أنَّ كنيسة الإسكندريَّة هي أوَّل كنيسة وردت بها إشارات وثائقيَّة عن وجود اعتراف سري على الكاهن. ونحن نعرف أنَّ قوانين الرُّسُل المعروفة في الكنيسة هي ذات أصول سريانيَّة.

وأمَّا القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)، فهو الوحيد الذي شذَّ عن آباء الكنيسة، إذ حاول أن يُثبت وجود الاعتراف السِّري على الكاهن، وذلك في معرض تعقيبه على آية يعقوب الرَّسول «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا» (١٦:٥).

فيقول القدِّيس أغسطينوس:

[ليس المقصود أن يعترف الكهنة على العلمانيِّين، كما يعترف هؤلاء لهم ... بل هي على حدِّ قولك: علِّموا بعضكم بعضاً، وعالجوا أحدُكُم الآخر، وليُسعف الواحد منكم صاحبه. بمعنى أنَّ العالم يعلِّم الجاهل، والطَّبيب يعالج المريض، والقوي يشدِّد الضَّعيف، وقس على ذلك. ومن هذا يتَّضح أنَّ البعض الذي نعترف له هُم كهنة الله الأمناء ...] (تفسير يوحنا ١:٨-١٠).

وهو تفسير يُحمِّل الآية الواردة في رسالة القدِّيس يعقوب، أكثر ممَّا تحتمل. لأنه في نفس الآية المذكورة، يقول «وصلُّوا بعضكم لأجل بعض» فهل معنى هذا أنَّ العلمانيِّين لا يُصلُّون من أجل الكهنة والإكليروس؟ فنحن نعرف أنه في القُدَّاس الإلهي يُصلِّي الشَّعب من أجل البطريرك والأساقفة والكهنة.

وإنَّ كنيسة الإسكندريَّة صاحبة مدرسة التَّفسير المجازي للكتاب المقدَّس، لم تنهج أسلوب القدِّيس أغسطينوس في تفسيره السَّابق ذكره، لكي تجد من الكتاب المقدَّس، شاهداً عن الاعتراف السِّري على الكاهن. لأنَّ التَّقليد المستقر في الكنيسة هو الذي يدعِّم هذا التَّعليم ويؤكِّده. ومن هنا يظهر لنا أهميَّة التَّقليد الآبائي إلى جانب الكتاب المقدَّس.

فسواءٌ كان الاعتراف بالخطايا في مراحله الأولى اعترافاً علنياً أمام الكنيسة، أو سرياً أمام الكاهن كنائب عن الكنيسة في مرحلة متأخِّرة، إلاَّ أنَّ دور الكنيسة في هذا الأمر، ظلَّ دوراً أساسياً.

فرجوع القدِّيس بولس الرَّسول إلى الإيمان الذي كان يضطهده قبلاً، كان عن طريق حنانيا أُسقُف دمشق، برغم أنَّ الرَّب كان قد ظهر له في الطَّريق، وكان ممكناً أن يخبره بكلِّ ما يريده منه، ولكنَّه قاله له: «قُم وادخل المدينة، فيُقال لك ماذا ينبغي أن تفعل» (أعمال ٦:٩). وهنا يظهر أهميَّة دور الكنيسة. فكلُّ ما لا تختم عليه الكنيسة، لا يكون قابلاً للصَّرف من عند الرَّب. فلا خلاص خارجاً عن الكنيسة.

٢٧- ويقصد بها - طبقاً لما ورد في بقيَّة النَّص - خطايا عبادة الأوثان، والزِّنا، والنجاسة.

وكرنيليوس قائد المائة، ظهر له ملاك الرَّب وأخبره أنَّ صلواته وصدقاته صعدت تذكاراً أمام الرَّب، أخبره الملاك بقوله: «أرسل إلى يافا رجالاً واستدع سمعان الملقَّب بطرس ... هو يقول لك ماذا ينبغي أن تفعل» (أعمال ١٠:٦).

فيقول لبطرس الرَّسول: «أعطيك مفاتيح ملكوت السَّموات، فكلُّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السَّموات، وكلُّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السَّموات» (متى ١٦:١٩). وقوله للرُّسُل القدِّيسين: «الحق أقول لكم كلُّ ما تربطونه على الأرض، يكون مربوطاً في السَّماء. وكلُّ ما تحلُّونه على الأرض، يكون محلولاً في السَّماء» (متى ١٨:١٨).

وهذا السُّلطان، استخدمه القدِّيس بطرس الرَّسول مع حنانيا وسفيرة اللَّذَين كذبا على الرُّوح القُدُس[٢٨]، ومع سيمون السَّاحر[٢٩]. كما استخدمه القدِّيس بولس الرَّسول مع خاطئ كورنثوس[٣٠]، ومع عليم السَّاحر المُسمَّى بار يشوع[٣١]. **ولكن في كلِّ ذلك، لم يكن استخدام الرُّسل لهذا السُّلطان من داخل خدمة ليتورجيَّة كما تدل الشَّواهد السَّابق ذكرها.** إلاَّ أنه هو نفس السُّلطان الذي انتقل من الآباء الرُّسُل إلى الآباء الأساقفة في الكنيسة، ومن الأساقفة انتقل بإذنهم إلى الآباء الكهنة المساعدين لهم في الخدمة، لتتميم سُلطان الحِل والرَّبط من داخل الخدمة اللِّيتورجيَّة نفسها، ولكن تحت شروط صارمه، حدَّدتها قوانين الكنيسة.

لقد أعطى السيِّد المسيح للكنيسة سُلطان غفران الخطايا، لتقود أولادها بهذا السُّلطان الممنوح لها من الله إلى أبيهم السَّماوي، لكن بضمان واحد يحمي هذا السُّلطان من الشَّطط، ولا يجعله أداة في يد الكاهن لتحقيق غايات شخصيَّة أو أهواء ذاتيَّة لا تمجِّد الله، ولا تشهد لنعمته، وبعيدة عن الهدف الواحد والوحيد وهو خلاص النُّفوس وشفائها. هذا الضَّمان هو في قول الرَّب قبل أن يمنح هذا السُّلطان مباشرة: «اقبلوا الرُّوح القُدُس». فكلُّ كاهن قَبِل عمل الرُّوح القُدُس فيه، يغفر خطايا الخاطئ ليس بشخصه، بل بالرُّوح القُدُس الذي يمنحه هذا السُّلطان. والرُّوح القُدُس لا يمكن أن يعمل عملاً لا يمجِّد المسيح، ولا يمكن أن يعمل عملاً لا يشهد للمسيح، ولا يمكن أن يعمل عملاً يسبِّب تشويشاً وعثرة للنَّفس. بل إنَّ عمل الرُّوح القُدُس مملوءٌ سلاماً وفرحاً وبنياناً وخلاصاً، وفي ذات الوقت توبيخاً وتبكيتاً وتهذيباً وتشجيعاً.

ومن أجل هذا، لم تكن الكنيسة تسمح لأيِّ كاهن أن يتقبَّل اعترافات الشَّعب إلاَّ بعد فترة يحدِّدها الأُسقُف بنفسه، يسمح بعدها للكاهن الذي يراه أهلاً لذلك أن يتقبَّل اعترافات التَّائبين. وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك، فالشَّعب لديه من الحاسة الرُّوحيَّة، ما يجعله ينجذب نحو الكاهن الذي يحمل روح القسِّيسيَّة، وليس شكلها فقط.

لقد تقبَّل الكاهن من الأُسقُف نفخة الرُّوح القُدُس يوم رسامته، ليمارس أسرار الكنيسة وطقوسها. أمَّا موهبة شفاء النُّفوس، فلم يفهمها آباء الكنيسة على أنها امتياز إلهي مكتسب، بل هي قوَّة يهبها الله بروحه لمن يريد، كأحد المواهب المتعدِّدة الأنواع التي يمنحها الرُّوح الواحد لبنيان الجماعة وعافيتها وسلامة أعضائها وشفائها.

وإنَّ موجز تعليم الكنيسة وإيمانها في هذا الأمر، ينحصر في قول الكاهن: ''فليكن يا سيِّد عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي، محالين من فمي، بروحك القدُّوس''.

كلُّ خطيئة ضدَّ المسيح، هي ضدّ الكنيسة، لأنَّ الكنيسة هي جسد المسيح. ومن أجل ذلك، **فالتَّائب لا ينبغي أن يفصل بتاتاً بين الإقرار بالخطيئة أمام الله في مخدعه، والإقرار بها أمام الكنيسة بعد ذلك.** فالذين آمنوا بالرَّب يسوع في العصر الرَّسولي، مارسوا الاعتراف أو الإقرار بالخطيئة علناً وسط الجماعة، وعلى مرأى من الكنيسة كلِّها. ومن ثمَّ كان الرَّب يضمُّ كلَّ يوم إلى الكنيسة، الذين يخلصون.

إنَّ الخطيئة التي يخطئها الإنسان، تفصله عن الجماعة. لهذا وجب اعترافه بها أمام الجماعة لتصفح عنه، وبعد أن يتقبَّل الحِل في داخل الصَّلوات اللِّيتورجيَّة من الكاهن الذي أُعطي له هذا السُّلطان من الله، يعود الإنسان إلى شركة الجماعة، ويصير له الحق أن يتناول جسد المسيح ودمه الأقدسين، لأنه صار عضواً في الجسد الواحد.

٢٨- أعمال ٥:٥، ٦، ٩، ١٠
٢٩- أعمال ٨:١٨-٢٣
٣٠- ١كورنثوس ٥:١-٥
٣١- أعمال ١٣:١٠

ومع حلول نهايات القرن الرَّابع الميلادي، ولَّما صار متعذّراً على الكثيرين أن يعترفوا علناً بخطاياهم، تحوَّل الاعتراف سراً إلى من ينوب عن كلِّ الجماعة أمام الله، وهو الأب الكاهن. فبدأ الاعتراف العلني في الكنيسة يتوقَّف، ليحل محلَّه الاعتراف السِّري على الكاهن. **وفي سنة ٣٩٠م، أصدر نكتاريوس بطريرك القُسطنطينيَّة (٣٨١– ٣٩٧م) قراراً بتوقيف الاعتراف العلني في الكنيسة.**

وتتحدَّث الدِّسقوليَّة أي تعاليم الرُّسُل إلى الأُسقُف، شارحة باستفاضة كيفيَّة قبول الخاطئ، واستخدام سُلطان الحِل والرَّبط، فتقول له: ''يجب أن تعطي مغفرة لمن يتوب ... واعرف رتبتك يا أُسقُف. أنك كما نلتَ سُلطاناً أن تربط، هكذا نلتَ سُلطاناً أن تحِل''.

ويقول أنبا إشعياء الإسقيطي (٣٣٧-٤٤٧م) في تعليمه للمبتدئين:

[إذا سألك شيخ عن أفكارك فاكشفها له بصراحة متى تأكَّدت أن له أمانة، ويحفظ كلامك. ولا تنظر إلى كبر السِّن، بل اعتمد على من له علم وعمل وتجربة ومعرفة روحانيَّة، لئلا يزيدك سُقماً بدلاً من أن يهبك شفاءً].

وابتداء من القرن السَّابع الميلادي اتَّجهت الكنيسة البيزنطيَّة إلى اعتبار **أنَّ الاعتراف على الكاهن، هو الطَّريق الوحيد للحصول على مغفرة الخطايا!** وقد تبنَّى هذا الاتجاه ودافع عنه أناستاسيوس السِّينائي (+ ٧٠٠م) رئيس دير سانت كاترين في صحراء سيناء.

وفي القرن السَّابع الميلادي نعرف أيضاً من القانون رقم (١٠٢) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م، ضرورة استخدام أب الاعتراف للدَّواء النَّافع لكلِّ مرض على حدة، مراعياً الاعتدال، ليقود الإنسان المريض إلى الخلاص. مشيراً إلى أنَّ أمراض الخطيئة هي أمراض مستعصية ومتعدِّدة الأنواع.

إنَّ الإقرار بالخطيئة في حدِّ ذاته له فعل خلاصي، ليس لأنَّ مجرَّد الاعتراف بالخطيئة هو الذي يمنح الغفران، بل لأنَّ الاعتراف بالخطيئة كخطوة تمهيديَّة له هو علامة اتضاع حقيقي، ولا توبة مع الكبرياء. لأنه من المعروف أنَّ ما يعوِّق الاعتراف بالخطيئة هو أحد أمرين، إمَّا الكبرياء أو الخجل. أمَّا عن الخجل فهو لازم، لأنه كيف أخجل من الإقرار بخطيئتي أمام الله في حضرة الكاهن، في حين لم أخجل منها عندما اقترفتها أمام الله؟

- **حيدان سرّ الاعتراف السِّري على الكاهن عن غايته الأساسيَّة**

مع مرور الوقت، بدأ السِّر الكنسي كسرِّ توبة واعتراف، ينحصر رويداً رويداً في مجرَّد الاعتراف بالخطيئة على الكاهن، وذلك على حساب التَّوبة التي كان يلزم أن يقدِّمها التَّائب أولاً أمام الله، فتعطَّل النُّمو الرُّوحي للمعترف، ولم يستطع أن يتخلَّص من الخطيئة التي اعترف بها مراراً، ليس لملامة في تكرار الاعتراف بالخطيئة، بل بسبب فتور مخافة الله التي تسرَّبت إلى القلب. ومن ثمَّ، فقد صار تكرار الاعتراف بالخطيئة لا يشفيها.

ولقد ظهرت ممارسة ليتورجيَّة مزدوجة، بسبب انتقال الاعتراف من اعتراف علني أمام الجماعة، إلى اعتراف سري أمام الكاهن كنائب عن الجماعة، وهي صلاة التَّحليل التي صارت تُقال على رأس المعترف، ثمَّ تكرر مرَّة أُخرى في القُدَّاس الإلهي. فالتَّحليل الذي يُقال على رأس المعترف بعد إقراره بخطاياه أمام الكاهن، لم يظهر كطقس تمارسه الكنيسة الجامعة، إلاَّ بعد عدَّة قرون من نشأتها. فلقد ظلَّت الكنيسة تمارس الإقرار بالخطايا، سواء الجهاريَّة أو السِّريَّة، على أن يكون التَّحليل في داخل اللِّيتورجيَّا نفسها، لأنَّ كلَّ الحاضرين القُدَّاس الإلهي سيتناولون حتماً من الأسرار المقدَّسة، إذ كان لا يجوز حضور غير المؤمنين وغير المتناولين لصلوات القُدَّاس الإلهي، وهو ما تشرحه القوانين الكنسيَّة القديمة. ولكن الذي أوجد هذا التَّداخل، هو أنَّ الاعتراف بالخطايا كان يسبق اللِّيتورجيَّا مباشرة، كتمهيد حتمي للمصالحة بين أعضاء الكنيسة، قبل تقديم الذَّبيحة المقدَّسة. فارتبط الإقرار بالخطايا ارتباطاً مباشراً ببدء صلوات اللِّيتورجيَّا.

يقول الأب ألكسندر شميمان (+ ١٩٨٣م) في كتابه ''الصَّوم الكبير''[٣٢]:

٣٢– انظر: مجلَّة النُّور، العدد ٤، سنة ١٩٨٥م.

''ما هو دور سرِّ الاعتراف في التَّهيئة للتَّناول؟ إنَّ طرح هذا السؤال واجب، لأنه **في كثير من الكنائس الأرثوذكسيَّة، تنمو عقيدة أصبحت مقبولة اليَوم عموماً، تؤكِّد أنَّ المناولة للعلمانيِّين مستحيلة بدون الاعتراف والحِل.**

ولو رغب المرء أن يتناول مراراً، فعليه في كلِّ مرَّة أن يعترف، أو على الأقل أن يذهب إلى الكاهن ليحاللـه. **لقد حان الوقت أن نقول علناً: إنه مهما كانت الأسباب التي دعت إلى هذه العقيدة وممارستها، فهي لا أساس لها في التَّقليد، وهي تقود إلى انحرافات خطيرة في العقيدة الأرثوذكسيَّة للكنيسة، وسرِّي الشُّكر والتَّوبة فيها**''.

وفي النِّهاية ينبغي أن أشير إلى أنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة تُعلِّم بقولها: ''إنَّ توقيع العقوبة على الخاطئ، هو جزءٌ أساسي في غفرانها، باعتبار أنه من الأفضل أن يقاسي الخاطئ العقوبة هنا في هذا العالم عن معاناته بسببها هناك في العالم الآتي، إلاَّ أنَّ الجانب الرَّئيسي في غفران الخطيئة هو بواسطة كفارة المسيح على الصَّليب''[٣٣]. وواضحٌ هنا – طبقاً لهذا التَّعليم – أنَّ دم المسيح وإن كان يحتل الجانب الرَّئيسي في غفران الخطيئة، إلاَّ أنَّ هذا الغفران يحتاج إلى جوانب فرعيَّة لتكميله، وهذا ما لم تعلِّم به الدِّسقوليَّة، ولا المراسيم الرَّسوليَّة، أو أيٌّ واحد من آباء الكنيسة في القرون الأولى لها.

33- *Dictionaire de spiritualité*, vol. 12, Paris, 1983, p. 943 ; Cross, F.L., & Livingstone, E.A., *The Oxford Dictionary of the Christian Church* (*ODCC*), (2nd edition), 1988, p. 1059.